يفصح فى المرحلة الأولى إفصاحا مباشرا ثم يزينه أو يجمله أو يوضحه فى المرحلة الثانية . ولكننا على أية حال فى البلاغة التقليدية نميز بين المرحلتين . على خلاف ذلك طريق التصوير عند المحدثين الذين يعتمدون على مانسميه الصور منذ اللحظة الأولى ، لايشغلهم أن يثبتوا شيئا فيما عدا هذه الصور ، فهم يلجئون الى الصور وحدها دون أى شىء آخر ، والصور على هذا الوجه الثانى لاتتبع شيئا ، ولاتخدم غرضا أو معنى سابقا ، وإنما يناط بها الأمر كله ، فليس الشاعر على هذا الوجه مفكرا فى شىء متميز من الصور ، ومانسميه الصور هو قبلة الشاعر الحديث على حين كانت القضايا قبلة البلاغة التقليدية . ولكن طه حريص على ألا يفصل هذا . يريد أن يخاطب العامى والخاصى معا ، ويحرص على أن يؤدى أكثر من وظيفة فى آن واحد ، وظيفة الداعى الى الأدب القديم ، ووظيفة المفكر المعنى بالغذاء العقلى والروحى للإنسان العربى المعاصر ، ووظيفة المعلم الذى ينظر فى آثار البلاغة العربية نظرة فاحصة دون أن يفصل هذا النظر لأن الوظائف المتعددة يؤثر بعضها فى بعض .

ومع ذلك فمعظم الذين يقرءون طه لايلاحظون هذا كله . هم فى عجلة من أمرهم ، وهم يتصورون طه تصورا خاصا ، وقد يزعمون أنه مشغول بشخصه أو انطباعاته . وهذا أبعد مايكون عن الصواب ، فملاحظات طه إذا قرئت بدقة ، وإذا قارنا بينها وبين النص هالنا مافيها من هذا الالتزام الشديد بالنص ، فإذا تقدم عليه طورا فما يلبث أن يعود فيصطحبه الى جانبه ، أو يقدمه على نفسه وقد رآه وتعلق ببنيته تعلقا لم نستطع حتى الآن أن نكشف تفصيلاته . وقد كان موقف طه الموضوعى فى تعلقه بالبنية الداخلية للنص الذى يواجهه موقفا يعز على كثير من القراء الآن ملاحقته لسبب بسيط ، هو أن طه أراد أن يجمع فى كلتا يديه توجها إلى القارىء العام مرة ، وتوجها إلى القارىء الخاص مرة ، أراد أن يوسع مجال الخطاب ، وأراد ـ بوجه خاص ـ أن يعلم القارىء العام كيف يواجه النص مواجهة قد ترقى به بعد ذلك الى أن يكون قارئا خاصا ، ومن المؤكد أن أسلوب طه حسين فى تعليم القراءة لم يقدر تقديرا حقيقيا حتى الآن .

(٦)

قرأ طه فى مطولة لبيد آثار النزعة الإنسانية ، ولكنه لايشير إليها إشارة صريحة ، فقد كان حريصا على أن يسلك سبيلا ظاهره اليسر ، من استطاع أن يتأمل فى أثنائه باحثا عن أعماقه فليفعل ، ومن أراد أن يأخذه مأخذا بسيطا واضحا فليفعل . وعلى هذا